أقواس

فضاءات مايو مابين نسائم عدن والريدي !

على هامش الفعاليات الثقافية والادبية والفنية واالتي جرى تفعيلها في سياق الاحتفاء بالذكرى الـ (١٦) لقيام الجمهورية اليمنية والتي تبناها مكتب ثقافة عدن خلال الايام القليلة الماضية والتي دشنت مساء ٢٠ مايو بحفله الفني والثقافي الرئيس على صعيد محافظة عدن وانتهاء بآخر فعالياته لمساء يوم الخميس ٦/١ حيث يكون بذلك قد اسدل الستار امام (حزمة) فعالياته الاحتفائية.

ومن خلال هذه الفعاليات نلتقط بعدين جميلين جاءا في سياق نسيج هذه الفعاليات اولهما فعالية الوفاء امام (قامة النقد والاخراج المسرحي) للفنان والناقد والمؤرخ المسرحي الفقيد الاستاذ احمد سعيد الريدي من خلال ماجرى من فعالية نقدية له في منتدى بن شامخ والثانية ميلاد فرقة نسائم عدن للموسيقى والفنون التابع لمنتدى الشاعر الباهيصمي وهذه الفرقة الفنية والموسيقية محاولة فنية وموسيقية من الاستاذ محمد سالم باهيصمي ومستشارها الفني الاستاذ فرحان علي بتحريك ركود الحركة الموسيقية والغنائية لهذا كانت مشاركتها في فعاليات مديرية المنصورة خلال احتفالات عدن بالعيد الـ (١٦) جواز مرور ناجح لها بهذا الصدد.

عبدالله الضراسي

الدكتورة وداد البرغوثي في حوار اريحي :

أن يقرأني خمسون شخصاً في قريتنا .. فهذا رضا

وطني المسلوب لا اسقطه في رواياتي .. لأنه الرواية والقصيدة .. وكل شيء

وداد البرغوثي الكاتبة الفلسطينية المبدعة المعجونة روحها بتراب فلسطين والمسكونة في ثنايا فؤادها .. استطاعت ان تشق لنفسها طريقا في عالم الادب والفكر وفي بلاط صاحبة الجلالة رغم مصاعب كثيرة .. كما استطاعت ان تختط لها طريقا نحو الابداع في رفد اجيال من الكوادر الشابة الى ميدان النضال الاعلامي كاستاذة صحافة في جامعة بير زيت في رام الله بفلسطين .. واي نضال .. فهو الحرب المقدسة في ارض محتلة من قبل (زمرة بني صهيون) الذين اخرجوا اصحاب الديار من ديارهم وارضهم، بمباركة دولية رسمية وبموافقة الانظمة السياسية الهشة، ليملكوا الدار والسماء والجبال والبحر في ارض الانبياء والمقدسات الدينية التي كانت مفتوحة لكل خلق الله.. في حوار ضاف وشيق حدثتنا د .البرغوثي الكثير عن هموم الانسان الفلسطيني المسلوبة ارضه وخاصة المرأة الفلسطينية المناضلة في مختلف المجالات رغم الحصار والفوضى والموت اليومي.. هي المرأة التي تشكل المحور الاساسي في نتاجات اديبتنا الابداعية المختلفة .. كما هي فلسطين التي لاتغيب عن فكرها .. فهي الحاضرة دائما في كل حرف تنثره لى الورق . .وهي هكذا وداد البرغوثي منذ عرفتها قبل اكثر من ربع قرن ويزيد اما هذا الحوار فكان من المفترض ان يدار في عمان عاصمة المملكة الأردنية حين التقيتها هناك بعد ٢٤ سنة من الافتراق بعد الانتهاء من سنين الدراسة الجامعية في موسكو، وبدعوة منها، الا ان الاتفاق عليه بيننا غاب في حاضرة الاشواق المستعرة وفرحة اللقاء - الامل والحلم غير المصدق - بصديقتنا الازلية الثالثة الصحفية الاردنية المعروفة حمدة الزعبي التي فارقناها ايضا فتاة غضة لنجدها زوجة واما وجدة .. لذا ارجأنا الحوار عبر وسيلة العصر التكنولجي «شبكة الاتصال الدولية» في ما يسمى بـ (الماسنجر).

حوار / نادرة عبدالقدوس

● في ظل الغياب الملحوظ لدراسة السير الذاتية النسائية على مستوى الكتابات النقدية اين موقع وداد البرغوثي في هذا المجال؟

– لااعتقد انني ابالغ لو قلت ان السيرة الذاتية النسائية حاضرة بحضور الادب النسائي وتحديدا الادب الروائي، فالرواية غالبا ما تشتمل او تستقى من التجربة الذاتية للكاتب رجلا كان ام امرأة. وبشكل خاص في الاعمال الاولى. وداد البرغوثي ليست استثناء فالسيرة الذاتية حاضرة بشكل او بآخر في اعمالي، وان لم تأخذ طابع السرية او شكلها المعروف، الا انها حاضرة بشكل جزئي في كل عمل، حتى لو تظهر الكاتبة او الكاتب كشاهد عيان على بعض احداث الرواية او في علاقة ما مع شخص الرواية.

● هناك كاتبات فلسطينيات لهن باع في مجال كتابة القصة والرواية ويحظين بشهرة على مستوى الوطن العربي.. لماذا لاتجد الاديبة وداد البرغوثي هذا الصدى وهي التي لاتقل شأنا في كتاباتها عن غيرها من الادباء الكبار؟

– صحيح ان لكل مجتهد نصيب. لكن ثمة ظروف وتفاصيل في حياة وعمل كل واحدة قد تسهم في ظهورها او عدم ظهورها، وليس الابداع وحده هو المقياس فان تعيش الكاتبة في قرية صغيرة او في مدينة سيؤثر ذلك بشكل او بآخر على شهرتها وقربها من حركة النشر والنقد والاعلام ان تعيش في داخل الوطن المحتل والمحاصر سيختلف حالها عن كاتبة تعيش خارج الوطن، في لبنان مثلا او اوروبا او غيرها.

نصيبي انني اعيش في قرية داخل الوطن المحتل، حدود انتشارنا كانت عبر عقود طويلة وما تزال محصورة عبر الحدود التي رسمها العدو كوني اعيش في قرية في ظل عشرات الحواجز العسكرية الصهيونية يمنعني ان اكون وسط الحدث الثقافي خاصة وان النشاطات تجري في المدن.

فما بالكم في التواصل مع خارج الوطن المحتل؟ ومع ذلك استطيع القول اني اشعر ببعض الرضا في ظل هذه الظروف لشعوري – لاغرورا ولاادعاء – ان اسمي معروف ككاتبة وشاعرة وكاتبة اغنية واعلامية على مستوى الوطن بالحد الادنى. وان يقرأ خمسون شخصا عملا لكاتب ما في قرية واحدة خلال الشهر الاول من الصدور فهذا شيء ليس قليلا، وقد حظيت روايتي «ذاكرة لاتخون» بذلك والحمد لله.

● كيف تسقط وداد البرغوثي واقع وطنها المسلوب في رواياتها؟

– وطني المسلوب لااسقطه في الرايات في الرواية وهو القصيدة وهو كل شي. لايمكن لاية جزئية من جزئيات حياتنا ان تمر دون ان يدخل الوطن المسلوب في دقائقها. ولدت بعد اسر والدي ببضعة اشهر ورأيته للمرة الاولى عندما كنت في الثامنة من عمر اي عندما افرج عنه، وسجن مرة ثانية وثالثة ثم اصبحت فيما بعد زوجة لمناضل اسير لمدة سبعة اعوام ثم مطارد لمدة ثلاثة اعوام ثم اسير من جديد لمدة عامين . ان طفولتي وطفولة ابنائي شهدت حرمان حنان الاب والفقر والعوز والمداهمات الليلية والتعذيب والوقوف امام السجون ناهيك عن كوني جريحة في الانتفاضة الاولى، هذا على الصعيد الشخصي والعائلي.

شهدت طفولتي احتلال عام ١٩٦٧م وشهدت انتفاضتين شكلتا مفصلين هامين في تاريخ وطني، كل ذلك وجد انعكاسه في اعمالي بشكل عام، بل وفرض نفسه على تفكيري وادائي في كل شيء، في القصيدة والرواية والاغنية والمسرحية والقصة والبحث والموضوع الصحفي.

● لماذا لاتنشر وداد البرغوثي دواوين شعر كما في الرواية ؟ وهي الشاعرة المبدعة؟ واول ماعبرت فيها عن احاسيسك المرهفة كان في قوالب الشعر؟

– هناك اشكالية بشكل عام في امكانات النشر بصفة عامة والاقبال على الشعر بصفة خاصة، يعاني منها حتى كبار الشعراء لهذا السبب لم انشر الاربع اعمالي فقط وباعتقادي ان حركة النشر بشكل عام تعاني من ازمة حقيقية، ولايمكننا الحديث عن شاعر او روائي او حتى فنان في فلسطين يعتاش من ابداعه مهما كان مبدعا. وهذا الوضع غير مشجع على النشر. دور النشر خارج فلسطين ايضا عبرت في اكثر من مناسبة عن ميلها في العقد الاخير نحو نشر الرواية اكثر من الشعر. ناحية ثانية لااستطيع ان اقول ان اول ماعبرت فيه عن احاسيسي كان الشعر، لان محاولاتي الشعرية الاولى في اواسط السبعينات تزامنت مع محاولاتي الروائية الاولى والقصصية الاولى، لكن السبعينات والثمانينات كانت مرحلة شعر اكثر مما كانت مرحلة رواية، لذلك انتشر الشعر كونه الاسهل تناولا وتداولا والاسرع تعبيرا من غيره من الفنون والادوات الادبية الاخرى.

● هل تجد الكاتبة العربية مساحة من الحرية والشفافية في التعبير عن مكنوناتها العاطفية والرومانسية؟ اعني بذلك هل الرقيب الذاتي للكاتبة يقوم بدوره في الحد من البوح الشفاف؟ لان كثيرات لايجدن هذه الحرية اثناء الكتابة الادبية خوفا من ا تهامهن باسقاط تجاربهن الشخصية في ابداعاتهن الادبية؟

– ببساطة استطيع القول ان الكاتب العربية والكاتبة العربية لايستطيعان التعبير عن مكنوناتهما العاطفية او السياسية او الرومانسية لدرجة البوح الشفاف لكن عمل المرأة يوضع دائما تحت المجهر باسرع مما يوضع عمل الرجل نظرا لكون انتاج المرأة اقل من انتاج الرجل ولذلك يصبح مرئيا اكثر ويخضع للتشريح اكثر لعل (ذاكرة الجسد) لاحلام مستغانمي بما اثارته من ضجة وشهرة دعت الكثير من الكتاب لادعاء كتابتها (وبنات الرياض) لرجاء الصانع ايضا بما اثارته من ردود فعل ايجابية وسلبية خير دليل على ذلك. ودليل آخر على ذلك ان نساء اديبات تعرضن للملاحقة القضائية بسبب جرأتهن او محاولتهن الاقتراب من البوح الشفاف كما حصل مع الكاتبتين الكويتيتين ليلى العثمان وعالية شعيب.

الموضوع من وجهة نظري سيف ذو حدين، فمن ناحية انا مع البوح الانساني الشفاف اذا كان هذا البوح يخدم جمالية النص ويمتع القارئ ولايخدش الحياء ويحافظ على نقاء الذوق ولاقصد بذلك ان على الكاتب الايذكر الا ماهو جميل. فجمالية النص شيء وجمالية الحياة شيء آخر فانا لست مع البوح الذي يضرب عرض الحائط بمشاعر القارئ وبذائقته الفنية والانسانية لذلك، دائما، لابد للكاتب والكاتبة على حد سواء من رقيب ذاتي او غربال يغربل القمح من الزوان والشوائب. واذا جاز لي ان اذكر اعمالا بعينها اثارت ضجة لما فيها من بوح ادى الى منعها فاذكر (وليمة لاعشاب البحر)لحيدر حيدر و(الخبز الحافي) لمحمد شكري.. المنع والضجة الاعلامية والنقدية ومهاجمة الجهات التي منعت هاتين الروايتين جعلتني ابحث عنهما واقرأهما. والصدق يقال اني لم استطع اكمال اي من الروايتين لما فيهما من تحد لذائقة القارئ ومشاعره الى درجة الصدمة فانا لاأويد مثل هذا البوح الذي يثير الغثيان احيانا. ومع حضور الرقيب الذاتي او الضمير الذي يمنعني من الوقوف في صدام مع القارئ. انا مع البوح ولكن .. انا مع الحرية ولكن المسؤولة.

● في رواية حارة البيادر كان للمرأة وجود بارز في مشهدياتها المختلفة هل هو عن قصد من الروائية وداد البرغوثي خاصة في المشهد الاخير؟

– نعم، حضور المرأة بارز دائما في اعمالي. فالمرأة بالنسبة لي قضية، سؤال برز منذ سنوات الطفولة المبكرة. فقد ولدت لاب محكوم بالسجن لمدة خمسة عشر عاما، يعني انه محكوم وامي بعدم الانجاب في وقت تطمح فيه العائلة العربية دائما لولادة الذكر لذلك كانت ولادتي كأنثى غير مرغوب فيها في مجتمعنا القروى يعبر عنه في داخل العائلة وخارجها فما ان يسألني احد من اهل قريتي : ابنة من ؟ يعرف من جوابي انني ابنة عادل البرغوثي المحكوم بالسجن ١٥ عاما حتى يعرب عن تحسره قائلا : هل حرام لو كنت ولدا؟ السؤال ولد عندي كبيرا كبيرا منذ نعومة اظافري لماذا لايريدونني ان اكون بنتا؟ عملي في الصحافة وتفاعلي مع المجتمع واطلاعي على عشرات بل ومئات القضايا جعلني دائما اعتبر المرأة واحدة من ثلاث قضايا كبرى بالنسبة لاعمال هي : الوطن المسلوب، الفقر، المرأة.

● ماذا عن الجديد في كتابات وداد البرغوثي؟

– اعمالي الادبية متشعبة المجالات من حيث الموضوع او من حيث الشكل الفني. وهذا التشعب يعتبره البعض موهبة استثنائية، ويعتبره البعض الآخر نقيصة لست ادري بالضبط الى ماذا يستندون. فكثيرا ما صادفت اناسا قرأوا لي شعرا فقالوا : تفرغي لكتابة الشعر ولاتكتبي شيئا آخر. وبعض قرأ الرواية اعتبروا الرواية هي افضل ما كتبت! وعلى مستوى القرية، كثير من الاشعار والازجال التي تغنى في الافراح والمناسبات من تأليف ويحفظها الناس ويحبونها. انا لااستطيع القول انني اهتم بشكل دون آخر، او احب فناً دون آخر، فانا لااختار الشكل التعبيري لفكرتي، شعرا او قصة او رواية او اغنية. الفكرة نفسها والموضوع يقومان بالاختيار بالنيابة عني.

في الفترة الاخيرة كتبت روايتين : الاولى بعنوان «تل الحكايا» والثانية بعنوان «الوجوه الاخرى» لم انشرهما بعد لكنني اتواصل مع بعض دور النشر بهذا الخصوص.

ميل نحو الرواية في السنوات الاخيرة لايعني باي حال من الاحوال انقلابا على الشعر او اي شكل آخر، لكنه يمثل اختمارا لافكار وتجارب وخبرات ميدانية اورثني اياها عملي في الصحافة والابحاث لم يعد وعاء القصيدة يتسع لها. فاية فكرة تجد لها متسعا في قصيدة لن اتوانى عن كتابتها شعراً او قصة قصيرة او اغنية.

● هل لنا ان نتعرف على بعض من ازجالك المتداولة؟

– ازجالي في معظمها باللهجة الفلسطينية الدارجة، كثير منها مستقى من الفولكلور الفلسطيني فـ «الدلعونا» الفلسطينية لها في ازجال نصيب لابأس به فقد اشتهرت كثيرا زجلية من تأليفي وغنتها فرقة صابرين الفلسطينية وتذيعها الاذاعة الفلسطينية كثيرا خاصة في المناسبات المتعلقة بالمرأة :

مطلعها :

على دلعونا على دلعونا نحن سمعناكم وانتو اسمعونا
مصيبة بهاالزمن والله ياختي
اطلع تكرار وصورة عن ستي
لارضى انا ولاترضي انتي
لايزعل حدا ولايحزنونا

وفي زجلية اخرى شاعت ايضا :

روابي بلادنا اجمل روابي بما فيها من سهول وهضابي
وثروات الارض عندي ماتسوى من تراب الوطن ذرة ترابي
انا يابلادنا غيرك ما اهوى ولايعشق سوى ترابك جنابي
انا عاشق ورسم الارض جوا ....الخ

ازجال قيلت في مظاهرات واخرى عبرت عن احداث، في الانتفاضات وحربي الخليج الثانية والثالثة وللاسرىٰ والشهداء.

● كيف تستطيع المرأة العربية المبدعة التوفيق بين ادوارها المتعددة في مجتمعها .. من واقع وداد البرغوثي الصحفية واستاذة صحافة في الجامعة واديبة وشاعرة وام وزوجة ومناضلة وطنية .؟

– يمكن ان نضيف الى ذلك انني فلاحة تسكن قرية ونملك ارضا نعتني بها واعمل في المواسم الزراعية ، علما ان العمل في الارض ليس مجديا اقتصاديا بسبب الحرب التي يشنها العدو الصهيوني على الارض والزراعة، لكن التزامنا الادبي والوطني والاخلاقي والتاريخي ازاء الارض يجعلنا نعتني بها ونحافظ عليها من الضياع كواحد من ابنائنا. عودة الى السؤال اعترف ببساطة متناهية انني غير قادرة على التوفيق بين المهمات المتعددة، وان كنت بالضرورة اجمع بينها الا انني لااستطيع ان اعطي كل جانب حقه، فلا بد الابداع في جانب معين ان يكون على حساب جانب آخر فانا لست «سوبرمان» ولا اعمل على ازرار الكاتبة مثلها مثل اي انسان آخر، كائن من لحم ودم وربما تزيد عن الآخرين في توهج المشاعر التي تلهب داخلها وتجبرها على التعبير عنها. ما يساعدني على مواصلة الحياة كأم وعاملة واديبة .. هو نمط الحياة الريفي الذي اعيشه وما يلعبه الاهل والاقارب والمحيط من ادوار ايجابية ومساعدة سواء في اعمال البيت او في رعاية الاطفال او في المواسم الزراعية.

● دورك النضالي في الساحة السياسية واثره على كتاباتك الابداعية؟ وهل فكرت في ترشيح نفسك في الانتخابات البرلمانية خاصة وان لك شعبية على المستوى المحلي في اطار القرية وعلى المستويين السياسي والثقافي الفلسطيني عموما؟

– استطيع القول انني في السنوات الاخيرة لم اعد امارس العمل السياسي، او مارست العمل السياسي المحدود الذي تفرضه لحظة سياسية راهنة. واصبحت متفرغة للعمل الاكاديمي والابداعي وللاسرة منذ سنة ٧٦ وحتى ٩٤م كنت انشط سياسيا وميدانيا على الصعيد التنظيمي والميداني والنقابي وكم مظاهرة شاركت فيها. ولابد ان اذكر حادثة مازال الجميع يذكرها، انني وزوجي قبيل التجهيز للزواج شاركنا في مظاهرة حاشدة في ذكرى هزيمة الخامسة من حزيران يونيو وتعرضنا لكثير من اطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع. وفي يوم الحناء كان بيتنا يغص بالمحتفلين بينما غاب العروسان (انا وزوجي) لحضور تأبين الشهيد محمد قطامش.

اما بخصوص ترشيح نفسي للبرلمان فقد عرضت علي ذلك جهة سياسية معينة الترشح للبرلمان ورفضت رغم محاولات الاقناع. السبب انني مقتنعة بان العمل السياسي يحد من انطلاق الاديب ويقيده لذلك اردت ان ابقى متحررة من اية ارتباطات او التزامات يمكن ان تجعلني اتردد قبل الكتابة واحتار بين ان كان هذا التعبير او هذا الموقف او العمل يرضي جهة سياسية معينة ام لا اشتريت حريتي الثقافية والفكرية وتركت العمل السياسي.

● عانت وداد البرغوثي الكثير في مراحل نضالية من حياتها السياسية .. هل هذا المخزون وارد في ابداعاتها القصصية والروائية والشعرية؟

– بدون شك انعكس هذا المخزون في كثير من اعمالي الروائية والشعرية فكثيرا ما يلوذ الاديب الى تجاربه ليتخذ منها مصدرا لاعماله الادبية وهذا ظهر في العديد من القصائد وفي رواية «ذاكرة لاتخون» و«تل الحكايا» واعمال اخرى كثيرة.

● ماذا عن دور زوجك في دعمك وتحمله هو والاولاد مفارقتك لاشهر عديدة من اجل نيل الدكتوراه قبل شهر ونيف؟

– اقول وباعتزاز وبعرفان بالجميل ان زوجي لعب دورا كبيرا في حياتي من حيث دأبه المستمر على توفير الظروف الملائمة لتحقيق احلامي والتي يعتبرها احلاما مشتركة فقد حرم بسبب سجنه لفترات طويلة ومطاردة قوات الاحتلال له من اكمال تعليمه الجامعي، واضطر ان يتوقف عن تحقيق هذا الحلم ومع ذلك لم اجد منه الا الوفاء لاحلامي وطموحاتي. فلولا وقفته وتعهده برعاية الاطفال لما تشجعت على السفر والعيش بعيدا عن اسرتي واطفالي ولاانكر اسهام الاقارب الآخرين في ذلك، لكنني واثقة انهم لو وجدوا وهنا او ترددا في موقفه ازاء دراستي فلن اجد منهم التشجيع لذلك اعتبر ان الفضل الاول في حصولي على الدكتوراه يعود له كما يعود الفضل للمرحوم والدي في دخولي الجامعة اول مرة.

● كثيرات من المبدعات المتزوجات في مجتمعنا الشرقي، ولااقول العرب فقط، يعانين من غيرة الرجل .. فهل تخاف وداد البرغوثي من مواجهة هذا المصير يوما؟

– احمد الله انني لا اعاني من اية مشكلة من هذا القبيل، بل العكس تماما اجد في زوجي المشجع الاول وهو في الغالب اول من يقرأ كتاباتي، ويبدي ملاحظاته عليها سواء كانت سلبا او ايجاباً، يحمل قصائدي وكتبي ومقالاتي يعممها على اصدقائه ومعارفه وزملاء عمله، يعطيني الكثير من الافكار والاقتراحات التي يحس انها تصلح لان تكون مقالا او عملاً ابداعيا معينا يمتلك ثقافة استقاها من سني سجنه الطويلة تؤهله لذلك والاهم انه يمتلك حسا انسانيا عاليا في كل شيء، بل ثقة مطلقة يحترم نتاجي وصداقاتي واحترم تاريخه وصداقاته.

لاادعي باننا نعيش حياة مثالية لكن لم احلم بزوج يحترمني اكثر مما يحترمني زوجي. وما زال زوجي يتحدث عن مشهد كنا فيه معا حين تسلمت جائزة وزارة الثقافة على روايتي «حارة البيادر» في حفل تكريمي وكان يحتفي بي وشعر بالفرح، بالمقابل كانت هناك شاعرة فازت بجائزة الشعر والقت قصيدتها الجميلة جدا والتي فازت بالجائزة كان التصفيق حارا جدا بسبب جمال القصيدة وجمال الالقاء، وما ان نزلت الشاعرة عن المنصة حتى تناول زوجها قصيدتها ومزقها على مرأى من الملأ . هذا المشهد استفز زوجي كثيرا وما زال يتذكره بكثير من الاحتقار لذلك الزوج الذي استكثر على زوجته المبدعة ان يصفق لها الجمهور.

قصص من الغموض والخيال

دمار منزل آشر

لـ(إدجار آلن بو)

ترجمة: ش
طارق علي السقاف

في احد أيام الخريف وفي تلك الليلة المقفرة الشديدة الظلمة سافرت لوحدي ممتطياً جواداً لزيارة منزل السيد آشر، وبعد ان ظهرت معالم المنزل من بعيد، بدأ وكأن روحي قد انقبضت وبدأت اشعر بالكآبة ممزوجة بالرهبة لاادري لماذا، كما شعرت بحزن غريب كان قد اعتراني وهذا الحزن – كما احسست- كان انعكاساً للحزن والذبول اللذين كانا يطلان من ذلك المنزل الذي كنت متوجهاً إليه.

كانت نوافذه شديدة السواد مثلها مثل العيون السود لوجه اعتصره الشحوب، وكانت بجانبه الجذوع البيضاء لاشجار لاحياة فيها وكانت تقع على ضفاف بحيرة مياهها الراكدة تعبر هي الاخرى عن حزن وذبول ذلك المنزل. وفي النهاية اوقفت كل محاولاتي لحل لغز ذلك الشعور الغريب بالحزن الذي اعتراني، عبرت البحيرة واتجهت إلى المنزل.

كان مالك المنزل – ويدعى رودريك آشر– من اعز اصدقاء الطفولة بالنسبة إلي، ولكن مرت سنوات عدة منذ آخر لقائنا، وقد ارسل لي مؤخراً دعوة عاجلة لزيارته، بل لقد ترجاني لامكث عنده لبضعة اسابيع، وقد ارسل لي شارحاً بأنه يعاني من مرض عضال ألم به، مرض أثر على عقله، وقال لي بأن رفقتي سوف تخفف عنه الكثير من آلامه وهاجسه بل وستسعده. كان صادقاً في كل مأقاله لي واكثر من ذلك بأني لم اتردد في الموضوع ولبيت طلبه وهاأنذا قد جئت إلى منزل آشر.

بالرغم من ان السيد رودريك آشر كان صديقي منذ الطفولة، إلا انني لم اكن اعرف عنه الكثير، كما انني اتذكر بأنه كان دائماً هادئاً بطبعه، كما لم يكن يحب الاختلاط بالآخرين. وعرف عن عائلة السيد آشر منذ القدم ميولها الشديد والغريب للخيال وكان هذا قد انعكس على اعمالهم الفنية والموسيقية على مر العصور. كما عرفت ايضاً بأن رودريك يعيش وحيداً حالياً ولايوجد لديه اقارب إنه آخر فرد من عائلة آشر. حتى ان منزل آشر لم يعني منزل وارض فقط بالنسبة للناس ولكنه كان يعني ايضاً عائلة آشر.

وبمجرد أن اقتربت من المنزل الكئيب قفزت فكرة غريبة إلى راسي اعتقدت بأن الهواء الذي كان يدور حول المنزل مختلفاً كلياً عن الهواء في بقية المناطق، كان هواءً فاسداً اعتقد بأنه ناتج من الاشجار الذابلة والبحيرة الراكدة وكذا الحيطان الكئيبة التي كانت تحيط بالمنزل بل شعرت للوهلة بأن الهواء نفسه كان كئيباً كان يحيط بالمنزل كسحابة ضبابية، كنت اشعر بصعوبة بالغة كي اطرد هذه الهواجس من عقلي.

استطيع ان ارى المنزل بوضوح الآن بعد ان اقتربت منه بمسافة كافية، كان منزلاً حجرياً قديماً جداً بالرغم من ذلك كان البيت مكتملاً بمعنى لم ينهار أي جزء منه ولكنه وبالرغم من ذلك كان قابل للسقوط من أعلى السطح من الناحية الامامية للمنزل حتى مستوى الارض.

أخذ الخادم حصاني، ودخلت بوابة المنزل، قادني الخادم بصمت عن طريق العديد من الممرات الملتوية نحو غرفة السيد رودريك، واثناء سيري مع الخادم رأيت اشياء بالرغم من انها عادية وموجودة في اي منزل إلا انه كانت لها الاثر الغريب في نفسي فقد رايت بعض من الزينة والستائر السميكة وبعض الدروع والاسلحة كما رايت صفاً من الصور وبينما كنت اصعد السلالم إلى اعلى قابلت طبيب العائلة الذي بدا وكأنه مستغرباً بل وظهر عليه الخوف بمجرد ان راني.

كانت غرفة مالك المنزل كبيرة جداً ومرتفعة كما كانت معتمة، كما أنها كانت مفروشة بأثاث من الطراز العتيق في القدم، كانت هناك العديد من الكتب والآلات الموسيقية المبعثرة ولكن كل هذه الاشياء فشلت في إضفاء الحياة على المنزل، كما شعرت بأنني انتفس هواءً مليئاً بالحزن والكآبة.

رحب بي آشر بحرارة جلسنا مع بعضنا وليبعض الوقت كنت اتطلع إليه وقد اعتراني شعور عظيم بالاشفاق عليه لقد تغير كثيراً صحيح انه كان في الماضي يبدو عليه بعض من الشحوب ولكن الآن كان شحوبه كبيراً وبالطبع لم أر في حياتي قط إنساناً قد تغير تغيراً رهيباً في فترة وجيزة مثل صديقي رودريك آشر، وبدت عيناه اكثر جحوظاً من قبل وباهتة كما كان حجمها غير طبيعي كما تحولت شفتاه إلى خيط رفيع اسفل انفه، اما شعره فقد اصبح مجعداً واشعثاً كما ان وجهه بدت عليه بوادر شيخوخة مبكرة.

لم يكن التغيير في صديقي رودريك شكلياً فقط ولكن سلوكه ايضاً قد تغير فقد اصبح كثير القلق وكان الاضطراب بادياً بوضوح على وجهه وصوته ايضاً كان قد تغير ففي الماضي كان صوته جهورياً قوياً أما اليوم فقد اصبح ضعيفاً ويشوبه الكثير من القلق والحذر، كان صوته مثل رجل ثمل انتهى لتوه من شرب كميات كبيرة من الكحول. وقد اخبرني بصوته الثمل برغبته الشديدة في ان يراني كما عبر عن اعتقاده بأن قدومي سيجلب له الكثير من الراحة والطمأنينة، بدأ بالحديث مطولاً عن مرضه وعلى حسب تعبيره كان - أي المرض - لعنة قد حلت به وبعائلته من قبله وبدا مرضه لاعلاج له على حد تعبيره كما عانى كثيراً من حدة إحساسه وقد نصحه الاطباء بنوعية معينة من الاكل كان لاطعم له، كما كان مجبراً على ارتداء نوعية معينة فقط من الملابس كما لم يستطع ان يتحمل رائحة الزهور، كما كان الضوء المباشر يؤذي عينيه كما كان ممنوعاً من الاستماع لصوت الموسيقى إلاّ من بعض الآلات الموسيقية التي كانت موجودة في بيته قال لي "أنا خائف من المستقبل ليس من احداثه ولكن من تأثير احداثه علي، إنني ارتعد بمجرد التفكير بأتفه الامور التي ربما تزيد من حالة الاحتقان التي اعاني منها، اعتقد بأن الحالة الرهيبة التي تعتريني - اي الصراع مع الخوف - سيأتي يوم اسلم فيه روحي وجسدي لها، وهذا اليوم اشعر بأنه قريب".

كانت صدمة عنيفة لي عندما علمت منه بأنه لم يغادر منزله منذ سنوات طويلة، قال لي " إن المنزل وحيطانه وكذا ابراجه كان لهم الأثر الكبير علي، فهناك قوة غريبة تقيدني بهم كما لو أنهم مخلوقات حية"، احسست بالألم ولم اجد ما أقوله لصديقي.

اعترف - بالرغم من انه تردد في البداية - من ان معظم الحزن الذي يعتريه كان ذات منشأ طبيعي وبسيط، كان حزنه يعود للمرض العضال والمزمن الذي ألم بأخته التي كان يكن لها حباً عميقاً، أخته التي كانت مرافقة له لسنوات عديدة، وكانت آخر قريب من العائلة بالنسبة له على وجه الارض، قال بصوت يملئه المرارة لايمكنني ان انساه ماحييت "أنها على وشك الموت، وموتها سيبقيني وحيداً في هذه الدنيا وآخر شخص من عائلة آشر"، وبينما كان يتحدث إلي دخلت اخته الغرفة ببطء وكأنت تدعى الليدي مادلين ولم تلحظ وجودي وانا اتحدث مع اخيها في الغرفة، وعندما نظرت اليها شعرت بدهشة وخوف عظيمين لم اعرف سببا لهما، وبمجرد ذهابها استدرت لمواجهة صديقي وكان هذه المرة قد غطى وجهه بيديه حتى يحجب سيل الدموع الذي انهمر منه.

كان مرض الليدي مادلين قد اربك امهر الاطباء وجعلهم يقفون عاجزين امام حالتها، كما انها الآن لم تعد تهتم بشفائها او حتى موتها نتيجة لذلك المرض، وكان يبدو عليها الضعف الدائم والمستمر حتى بدت هزيلة وكان هذا له تأثيره الاكبر على نبضات قلبها، وبقلب جريح وحزن عميق اخبرني صديقي بانه لم يعد هناك فرق كبير بين حالتها السيئة وموتها المحتوم، فقال لي بألم : «يجب عليها الآن ان تغادر الفراش كما اني لااظن بانك ستراها ثانية».

وبعد ايام من وصولي لمنزل آشر لم يذكر احدنا اسمها وخلال هذه الفترة حاولت قصارى جهدي حتى اجلب السعادة والسرور الى قلب صديقي، فقد قمنا بالرسم معا كما كنا نقوم بالقراءة وكنت استمتع بسماع عزفه على الموسيقى وكأنني كنت في حلم، وقد توطدت صداقتنا اكثر وكنا نتفق في الكثير من الآراء ولكن بالرغم من كل ذلك كان شعوره بالبؤس والشقاء اعظم.

كما انني لن انسى ساعات البهجة والسعادة التي قضيناها معا بالرغم من انني لااستطيع وصف شعوري تجاه ما كنا نقوم به معا، فقد كان صديقي آشر رجلا ذا مبادئ ومعتقدات نبيلة ولكنها تأثرت كثيرا خلال مرضه الطويل، واصبح الآن يعبر عن كل مايعتريه من شعور وافكار فقط بالرسم والموسيقى في كثير من الاحيان عامضا وعويص للفهم ليس لي فقط ولكن بالنسبة اليه هو ايضا ففي احدى المرات عندما نظرت الى احدى لوحاته ظننت باني قد فهمت شيئا ما فيها بالرغم من أنني لم استطع فهمها كثيرا، انني اتذكر تلك اللوحة التي رسمها لانني كلما نظرت اليها شعرت برجفة لا اعلم سببا لها، وكانت اللوحة عبارة عن طريق طويلة جدا تحيطه اسوار منخفضة الارتفاع ملساء وبيضاء، اللون، وكانت خلفية هذه اللوحة توحي بأن هذه الطريق تمتد الى اسفل واسفل تحت سطح الارض، كما لايوجد طريق غيره يجذبك الى اسفل قاع الارض، لم تكن هناك اضاءات او اي مصدر آخر للضوء في الطريق بالرغم من ان اللوحة كانت مغطاة بحزمة من الاشعة الضوئية.

في احد الايام كنا نتحدث واخبرني بانه يؤمن بان كل انواع النباتات لديها القدرة على الشعور والاحساس، كما اخبرني ايضا عن ايمانه بان الاشياء الجامدة ايضا لها هذه القدرة تحت ظروف معينة. وكما اسلفت سابقا فان معتقده هذا يرتبط بالحجارة القديمة الغبراء التي كانت متراصة فوق بعضها لتشكل منزله القديم، فقد كان يعتقد بان هذه الحجارة الغبراء العتيقة والطريقة التي تمت بها مرابطتها مع بعضها قد اعطتها نوعا من الحياة، وكذا مياه البحيرة والاشجار الميتة المحيطة بالمنزل كلها قد اشتركت مع بعضها في خاصية الحياة فقد قال لي : «الدليل على وجود حاسة الشعور لدى مياه البحيرة والحيطان وكذا الاشجار الميتة يكمن في التطور التدريجي للهواء المحيط بهم» عندما تذكرت الشعور الذي اعتراني عندما رأيت كل هذه الاشياء بمجرد وصولي لمنزله، فحبست انفاسي اثناء متابعة كلامه فقال لي : «ان لهذا الهواء تأثيرا صامتا ورهيباً على عائلتي، وهو السبب لما انا عليه اليوم» . لم استطع ان اقول شيئا لصديقي.

ذات مساء ابلغني آشر بوفاة شقيقته الليدي مادلين، وكان هدفه – كما اخبرني – بان يحتفظ بجثتها لمدة اسبوعين في احدى غرف المنزل الكثيرة الموجودة في الاسفل قبل ان توارى الثرى، وكان سببه في هذا القرار يبدو لي منطقيا الى حد ما فقد اخذ في اعتباره طبيعة المرض التي كانت تعاني منه، بمعنى انه كان يريد ان يتأكد من موتها قبل دفنها في مقبرة العائلة.

وقد ساعدته في عمل كل الترتيبات اللازمة حيال ذلك، وقمنا نحن الاثنان بحمل الجثة داخل النعش ووضعناها في احدى الغرف الصغيرة في الطابق الاسفل وكانت مظلمة ورطبة، كانت الغرفة تستخدم في الماضي في الاوقات العصيبة التي مرت بها عائلة اشر، فقد كانت مخزنا للذخيرة وبعض المواد الخطرة الاخرى، وجزء من ارضيتها ومدخلها كان مغطى بالنحاس، كان باب الغرفة الحديدي الكبير مغطى هو الآخر بالنحاس، قمنا بوضع التابوت على طاولة صغيرة، وفتحنا غطاء التابوت بشكل جزئي والقينا نظرة على الجسد المسجى داخله، وادركت عندها حجم الشبه الكبير بين الاخ واخته، نظر الي صديقي آشر وكأنه كان قد قرأ افكاري وقال لي بانهما – هو واخته – كانا توأم، كما ان عاطفتهما الكبيرة كانت مشتركة ابنائي بينهما ،كان هناك لون باهت على وجه الفتاة ورقبتها، وبدت ابتسامة باهتة ظهرت جلية على شفتيها، لم ننظر طويلا لها وقمنا باغلاق التابوت وعند خروجنا من الغرفة اغلقنا الباب خلفنا وتوجهنا نحو الطابق العلوي من المنزل.

بعد ثلاثة او اربعة ايام من الحزن الشديد لاحظت تغيرا محلوظا في سلوك صديقي، بدا وكأنه قد